لبنان

وثيقة الهيئات الثقافية

اصدرت الهيئات والمجالس والاندية الثقافية حول الوضع اللبناني الراهن الوثيقة الهامة التالية التي اعدها اتحاد الكتاب اللبنانيين :

مقدمة

● في ظل احداث العنف الدموي التي رزحت بها حياة اللبنانيين في الاشهر الاخيرة والتي ما تزال تنسحب باثارها الراعبه على وجه الواقع الراهن .

ونحت ثقل المسؤولية الوطنية والادبية التي يتحملها المثقفون اللبنانيون في هذه المرحله الخطيره من تاريخ وطنهم .

تلاقت الهيئات والمجالس والاندية الثقافية في لبنان بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين في مقر النادي الثقافي العربي ببيروت يوم الخميس الواقع في ١٩ حزيران ١٩٧٥ ، واصدرت هذه الوثيقه تعبيرا عن صوت المثقفين اللبنانيين وتجسيدا لالتزامهم :

● موجه رهيبة عارمة من احداث العنف الدموي اعترضت حياة اللبنانيين في الاشهر الاخيرة ، فخسروا مئات الضحايا ـ وفيهم الكثير من الابرياء والشهداء ـ وخسروا قدرا فادحا من الممتلكات والاموال . وكانت اشباه هذه الاحداث قد جرت في سياق يشبه سياقها من وجوه ، في فترات عدة خلال سنوات قريبة سبقت . ولا شيء حتى الان يدل ان الموجة قد انحسرت دون رجعة ، بل اظهرت الاحداث الاخيرة نفسها ان اعداد المليشيات الخاصه ، واعداد الاسلحة المتطورة لها يجريان بتكثيف وتصعيد . وهذا ينبيء ان الموجه امتدادات لاحقة مدبرة ، في كل يوم وفي كل لحظة ، قد تكون اخطارها اشد من كل خطر سابق تعرض له مصير لبنان واللبنانيين بعامة .

ازاء موجة الاحداث هذه ، وازاء احتمال احداث لاحقة اخطر منها ، ماذا علينا ـ نحن المثقفين اللبنانيين ـ ان نؤدي من مهمه ، للاسهام في دفع الاخطار عن شعبنا ومصير وطننا ، او في تغيير مسار الامور الجارية عن المنزلق المخيف الذي يتجه اليه ؟ ..

اننا لا نستطيع ان نحدد دورنا ، كمثقفين ، قبل ان نحدد موقفا معينا من هذه الاحداث يمكن ان نلتقي عليه جميعا او يلتقي عليه الكثرة منا او ـ بالاقل ـ نفر قادرون ان يحولوا موقفهم المبدئي الى فعل يسهم في دفع الاخطار او في تغيير المسار .

من الافضل ـ بالطبع ـ ان نصل الى الموقف الذي يجمع كل قوى المثقفين في لبنان على فعل مشترك . فذلك يعطي هذا الفعل زخمه وسعة رقعة تحركه ، ثم قدرته على التأثير .. ولكن ، اذا كان الموقف الاجماعي متعذرا ، بل اذا كان متعذرا ايضا حتى جمع كثرة المثقفين اللبنانيين على موقف واحد معين ، فان ذلك لا يعفي الاخرين من تحديد موقفهم وتحديد الدور الذي يؤدونه على اساس هذا الموقف .. ليس ذلك مسالة حق او مسالة واجب ، وانما هو مسالة ضرورة كيانية بالدرجة الاولى .. ان ضرورة كوننا جزءا من شعبنا ، وكوننا الفئة المؤهلة بالفعل لاستيعاب مطامحه الوطنية والاجتماعية والدمقراطية ووعيها وعيا معرفيا ووطنيا واجتماعيا وحضاريا في وقت معا ـ نقول ان هذه الضرورة نفسها هي المحددة في دفع كل منا ، منفردا ومجتمعا مع غيره ، الى ان تكون له رؤية واضحة لحقيقة الاحداث الخطيرة في بلاده ، وان يكون له على اساس هذه الرؤية موقف واضح من هذه الاحداث ، ثم ان يكون له دور واضح يترجم موقفه الى عمل ما يضعه في موقعه الضروري على احدى جبهات التغيير ..

من أجل موقف واضح

● اما الرؤيه لحقيقه الاحداث الاخيرة في بلادنا ، فينبغي ان تقوم : اولا ، على النظر في السياق الذي جرت فيه كل الاحداث اللبنانيه منذ الاستقلال وحتى اليوم ، وبشكل خاص احداث العنف الدموي خلال السنوات الاخيرة (١٩٦٩ـ١٩٧٥) ، اي منذ حلقتها الاولى (٢٣ ـ ٢٤ نيسان ١٩٦٩) حتى الحلقة التي لا تزال تقطر دما في مرأى العين الان .. وثانيا ، على استخلاص مضمون هذه الرؤيه لا من « حدثيه » الاحداث ذاتها ، بل من خلال السياق الذي يربط حلقاتها جميعا بعضها ببعض ، ليكشف عن علاقتها ـ مجتمعة ـ بمنطلق واحد هو الاساس في وحدة السياق بينها ، اي ليكشف ـ اخيرا ـ ان الظهور « الحدثي » لكل ما وقع ليس هو القضية التي ينبغي ان نقف عندها لكي نحدد نوع الموقف منها ، ثم نوع الدور الذي علينا ان نؤديه في سبيل دفع ما يحتمل من امثالها . وانما القضيه وجوهرها ، هما ذلك المنطلق نفسه الذي يرجع اليه سياق الاحداث كلها ..

ما كان اسهل تحديد الموقف وتحديد الدور ، وما كان اسهل ان نلتقي جميعا ـ نحن المثقفين اللبنانيين ـ على موقف واحد وفي دور عملي واحد ، لو ان الاحداث بذاتها هي القضية وجوهر القضيه .. فنحن جميعا ـ دون استثناء ـ قد انفعلنا انفعالات عميقه ، دون شك ، بافاعيل الابادة الجسدية للمواطنين ، لبنانيين وفلسطينيين وسوريين وغيرهم ، وبافاعيل الارهاب القمعي وتهجير الامن تهجيرا كاملا عن عاصمة البلاد وسائر المدن .. وهذا الانفعال بيننا كان يمكن ان نعبر عنه بلغة واحدة ، لغة الاستنكار والاحتجاج ، او لغة الحزن والتفجع ، وان نستخدم معا لغة واحدة ايضا في الدعوة الى « المحبة » و « الاخوة الوطنية » و « تناسي الاحقاد » و « التسامي على آلم الجراح » ، والى « مصالحة » هذا وذاك من فرقاء او زعماء او قادة .. الى اخر ما نسمع ونقرأ هذه الايام ، هنا وهناك ، من امثال هذه الكلمات والشعارات التي لا تقول شيئا ولا تحدد موقفا ولا تلمس من المحنة حتى طرف ظفرها .. اننا ـ نحن المثقفين ولا سيما حملة الاقلام منا ـ قد نكون اقدر على صوغ مثل هذه اللغة بما هو اكثر وهجا وبريقا ..

ولكن ، هل هذا كله يحسم الامر ، ويمحو المشكلة ، ويدفع الخطر المحتمل ؟.. هل نكون بذلك قد رأينا الرؤية الواضحة ، وحددنا الموقف الصحيح ، وادينا الدور الحقيقي ؟ ..

ما جرى أليس نزوة عابرة !

● نعتقد ان المسالة لا تحتمل مثل هذا العبث الساذج ، البعيد ـ او الذي ينبغي ان يكون بعيدا ـ عن طبيعة المثقفين ، من حيث كونهم مثقفين اولا ، ومن حيث كونهم ـ ثانيا ـ منتمين عضويا وكيانيا الى شعبهم ومجتمعهم ، اي كونهم مرتبطين ، موضوعيا بالعلاقات الاجتماعية نفسها التي بها يتفاعل هذا الشعب ، وبها ذاتها يتصارع .. من هنا تتوفر الضرورة لاندفاعنا ، كفئة اجتماعية ذات خصوصية معينة ، لمعالجة الواقع الذي يعانيه شعبنا ، معالجة اكثر جدية واعمق رؤية وابعد عن التبسيط او الطوباوية ..

على هذا نعود الى القول بأن موجة احداث العنف الاخيرة ليست موجة عابرة دفعتها ظروف او نزوات عابرة .. كما ان التشابه الملحوظ بينها وبين الاحداث الجارية منذ بضع سنوات حتى الان ، ليس

تشابها من نوع المصادفات .. بل ان ابسط النظر الى ما وراء هذه الاحداث يكشف ان التشابه بينها يرجع الى رابط جوهري يردها جميعا الى بؤرة واحدة تكمن فيها عوامل التفجير بهذا الشكل او ذاك في هذه السانحة او تلك .. اما التشابه الذي نعني فيتجلى في مواجهة المشكلات الوطنية والاجتماعية ، منذ تلك السنوات ، باسلوب القمع المسلح ، بدل الاسلوب الدمقراطي ، لدى كل تحرك جماهيري من الفئات الوطنية والشعبية ، التي تعاني اثار هذه المشكلات معاناة قاسية ، للمطالبة بالحلول الاتية لها او بالتخفيف من اعبائها .. ويتجلى ايضا في ان اسلوب القمع المسلح هذا لم يكن ، مرة ، يبالي ان يفتك بحياة المواطنين دون حساب ، وان يشوه اجساد بعض ويعطل قوى اخرين ويصيب عائلات بالكوارث .. هذا الاسلوب القمعي هو الممارسة البارزة التي تنتظم كل احداث السنوات الاخيرة ، سوى فارق واحد تتفرد به احداث الايام الرهيبة التي لا نزال نرزح بها حتى الساعة .. والفارق هذا ، هو ان القمع المسلح ينتقل هذه المرة من ايدي السلطات الرسمية الى ايدي الميليشيات الاهلية .. هذه الميليشيات التي هي بذاتها ، علامة تجديف واستهزاء بالدمقراطية وظاهرة غريبة شاذة في بلد له طابعه الدمقراطي مهما اصاب هذا الطابع من تشويه .. هذه الميليشيات المدربة عسكريا بعناية بالغة ، والمجهزة باحدث الاساحة المتطورة واشدها فتكا بالبشر والعمران والمرافق الاقتصادية .. ان هذا الفارق الجديد بين الاحداث الاخيرة والاحداث السابقة ، لا يغير شيئا من طبيعة التشابه بينها جميعا ، ولا من طبيعة السياق الواحد الذي يردها جميعا الى بؤرة واحدة ، اي الى القضية التي منها ينطلق هذا التفجر القمعي المتسلسل .. بل ان هذا الفارق يؤكد كلتا الطبيعتين ، لانه ليس سوى مشكل تصعيدي للتفجير ذاته من تلك البؤرة ذاتها .

ازمة وطنية ، اجتماعية ، دمقراطية

ما هي بؤرة التفجر هذه ؟ . .

أي ما جوهر القضية التي هي منطلق هذا التفجر ؟ ..

● اذا نحن نظرنا الى هذه الاحداث في « تاريخنا » ، أي اذا أرجعنا الاسلوب القمعي المسلح هذا الى مبدأ ممارسته عام ١٩٦٩ (٢٣-٢٤ نيسان) ، استطعنا ان نمسك بطرف الخيط حتى نصل الى جوهر القضية هذه .. ففي ذلك العام كانت ظواهر التطور في الحركة الوطنية اللبنانية قد اخذت تتبين وتتماسك شيئا فشيئا ، واخذت هذه الحركة تمارس دورها وتاثيرها - بشكل ما - في التصدي للمشكلات الوطنية والاجتماعيةووضع مشاريع الحلول لها ونقد الاساليب البالية المتخلفة ، وطنيا واجتماعيا وحضاريا ، التي تحكم سير النظام السائد في لبنان ، والتي تعرقل فعل الضرورة التاريخية لتطور هذا النظام ذاته ، بالرغم من انه بلغ مبلغ العجز المطلق عن حل أزماته ، وبالرغم من ان ازماته هذه اصبحت مصدر الضرر حتى لذويه والمنتفعين به ، وان كانوا يدارون هذا الضرر بفرض الكثير من اعبائه على فئات الشعب الكادحة ، ومنها الكثرة الغالبة من فئة المثقفين . غير ان مداراة الضرر بهذه الطريقة اولدت لذوي النظام ازمة من نوع اشد ضررا عليه وعليهم ، هي أزمة التناقض الاجتماعي الفاحش ، الذي ادى بدوره الى اتقاد جذوة الصراع الاجتماعي بمقاييس لم تكن متوقعة من قبل ..

ان تصاعد ازمات النظام على هذا النحو ، كان عاملا مساعدا - بالطبع - على ان تجد الحركات الوطنية اللبنانية ، بمختلف اجنحتها ، مجالا فسيحا لتطوير ممارساتها ولتكثيف وجودها ولتصعيد قدرتها على ملامسة وعي الجماهير الشعبية لقضيتها ومشاعر النقمة لديها على السياسات العاجزة عن حل مشكلاتها الاجتماعية ، ولا سيما المشكلة المعاشية الضاربة ..

يضاف الى ذلك ان تخلف اساليب النظام السائد في لبنان وتصاعد ازماته ، بسبب من هذا التخلف ، رافقهما ، بل لازمتهما ملازمة حتمية ، مسالة ذات وجه وطني تتعلق بالموقف من القضية الفلسطينية ، وبالتحديد : من الثورة الفلسطينية .. فان بعض اطراف النظام هذا ، وهو الطرف المغرق في موقفه الانعزالي ، اي في عدائه لقضايا التحرر العربية - وقضية فلسطين في مقدمتها - بقي دائما (هذا البعض) مصدر تحريض على الوجود الفلسطيني الثوري في لبنان ، منذ انبعث شعب فلسطين ممتشقا سلاح الثورة التحررية .. ان هذا الموقف التحريضي كانت له مضاعفاته على الصعيد الوطني اللبناني .. ذلك انه ادى اولا الى تخلف النظام في لبنان * وعجزه عن حماية الوطن من العدوان الصهيوني المستمر على حدوده وعلى سكان هذه الحدود اللبنانيين وعلى السيادة الوطنية اللبنانية في البر والبحر والجو .. وادى ثانيا الى تناقض آخر بين النظام والحركة الوطنية اللبنانية ، لان هذه الحركة - بحكم منطلقاتها المبدئية التحررية وبحكم التزاماتها القومية - كان من البدهي ان تلتزم قضية الدفاع عن الثورة الفلسطينية ككل وعن الوجود الفلسطيني الثوري في لبنان بالخصوص ، ثم كان من البدهي - كذلك - ان تتخذ نضالات الحركة الوطنية والشعبية الى جانب وجهها الاجتماعي وجها نضاليا وطنيا يضع قضية الثورة الفلسطينية بخاصة وقضايا التحرر العربي بعامة في اساس أهداف هذه النضالات .. من هنا اصبح موقف النظام اللبناني .. ذلك انه ادى أولا الى تخلف النظام في لبنان . وعجزه القلق من تعاظم النضالات الاجتماعية واتساع حدودها شعبيا ومطلبيا ، وعامل القلق من تعميق ارتباط هذه النضالات ، اكثر فاكثر ، بوجهها الوطني الذي يعني قضيتين متداخلتين : قضية حماية الوطن من العدوان الصهيوني ، وقضية حماية الوجودالفلسطيني الثوري على ارض لبنان من عدوان القوى الاكثر تخلفا بين قوى النظام ، ولهذا كانت الاكثر عجزا عن فهم طبيعة العلاقة الكيانية بين ما يسمى « بالوضع الخاص » للبنان وبين التزاماته العربية ومسؤولياته المفرزة موضوعيا ووثائقيا وحقوقيا تجاه المعركةالعربية المشتركة .. ان مسؤوليات لبنان هذه تقوم ، اساسا ، على كونه جزءا عضويا من الوطن العربي بحكم مجموعة من المقومات الموضوعية . وقضية فلسطين بما انها قضية العرب بعامة ، ترتبط بها كل القضايا العربية الاساسية في الوقت الحاضر ، فان الاستنتاج البدهي من ذلك ان لا بد للبنان ان يتحمل قسطه من المسؤولية العربية المشتركة عن قضية فلسطين . هذا فضلا عن كون لبنان مستهدفا بصورة خاصة لمطامع التوسع الصهيوني لاغراض استراتيجية، عسكرية واقتصادية تشمل مصادر المياه في جنوبه . فضرورات الالتزام اللبناني بالمعركة العربية المشتركة ، تقترن بضرورة هذا الالتزام وطنيا كذلك .

ان القوى نفسها الاكثر تخلفا بين قوى النظام القائم في لبنان ، تعاني الى ذلك عجزا اخر يتداخل مع ذاك .. هو العجز عن فهم روح العصر ، أي فهم الضرورة التاريخية - الحضارية التي تفرضها روح العصر ، ضرورة الاستجابة لدواعي التغيير الجارفة ، تغيير مرتكزات هذا النظام : الاقتصاديه ، والاجتماعيه ، والسياسيه ، والثقافية والتربوية ، وتطوير مؤسساته التمثيلية والتشريعية والدمقراطية .. مع ان هذه المرتكزات والمؤسسات قد تجاوزها التاريخ حتى في البلدان المستمدة منها اصلا بشكل مشوه ، بل تجاوزتها حتى التطورات الجارية بسرعة في داخل لبنان نفسه ..

وهنا نكاد نلامس جوهر القضية .. فان هذه القوى التي تحمل كل اوزار تخلف النظام ، قد بلغ بها العجز عن فهم رياح التغيير ، فضلا عن الاستجابة لها ، مبلغا اوقع النظام نفسه في أزمة هي ذروة ازماته المستعصية .. نعني بها أزمة الدمقراطية .. ان التطورات الجارية في لبنان ، كما في غيره من بلدان العالم ، تشمل - في ما تشمل - قضية الحريات العامة والحريات الدمقراطية .. هذا الى ان للدمقراطية في اذهان اللبنانيين مكانا يساوي مكان اعز ما يحرصون عليه من تراث وقيم .. وقد جاءت التطورات التي حدثت بلبنان في السنوات الاخيرة على صعيد الممارسات الدمقراطية والاجتماعية والسياسية والنقابية ، تدعم في اذهان اللبنانيين تلك

المكانة الراسخة للدمقراطية ، فتزيدهم حرصا على ما اكتسبوه من اشكالها النسبية ، وتزيدهم شغفا في ترسيخها وتطويرها وتعميق مدلولاتها الى ابعاد جديدة ، وازالة الشوهات التي دمغتها بالعجز عن الملاءمة مع هذه التطورات الحادثة على صعيد الحركة الوطنية والشعبية .. وهذا الواقع ـ بالضبط ـ هو مصدر ما سميناه أزمة الدمقراطية للنظام اللبناني القائم .. ذلك ان تلك القوى الاكثر تخلفا بين قوى النظام ، لم يقتصر امرها على العجز عن فهم رياح التغيير ، بل تجاوزت ذلك الى استشعار الرعب مما حدث في لبنان من تغيرات وتطورات في السنوات الاخيرة ، ولا سيما ما برز منها في مجال الممارسات الدمقراطية : الاجتماعية والسياسية والنقابية .

محاولة وقف عجلة التاريخ

لماذا الرعب ؟ . .

● ان تخلف تلك القوى لا يعني انها تجهل سير منطق المتغيرات الحادثة في لبنان وفي العالم ، بل هي تعرف بوضوح ، وترى بوضوح ، أن هذا المنطق يسير في اتجاه الطرف النقيض لاتجاه منطقها المعادي للتطور والتقدم ، والمتشبث بالبقاء على جموده وانعزاله عن منطق الضرورة التاريخية .. هي تعرف بوضوح وترى بوضوح ان المتغيرات اللبنانية اذا بقيت في مسيرها على خطها الدمقراطي الذي شقته لنفسها ، فان هذه المسيرة ستبلغ ـ عاجلا ام آجلا ـ مرحلة تتسع عندها شقة التناقض بين مستوى التطور الدمقراطي والوعي الاجتماعي والسياسي والفكري وبين الموقف الجامد المنعزل الذي تسمر به هذه القوى المتخلفة ابواب مؤسساتها البالية دون مجاري التغيير والتطوير .. وعند ذاك لا تملك ان تمنع عن هذه المؤسسات حتمية الانهيار النهائي ..

من هنا حقدت هذه القوى المتخلفة كل الحقد على الدمقراطية ، حتى على الاشكال المشوهة للدمقراطية .. ومن هنا حاولت هذه القوى ذاتها ان تقطع الطريق منذ الان على منطق المسيرة الدمقراطية في لبنان ، كل اشكال هذا المنطق ، ما دامت لا تستطيع الخروج ـ موضوعيا وذاتيا ـ على عجزها التاريخي عن مجاراته ..

ولكن ، كيف اختارت شكل المحاولة ؟ ..

● ان احداث القمع الدموي التي بدأت خلقتها الاولى يوم ٢٣ نيسان ١٩٦٩ ، وكانت حصيلتها الاولى يومذاك ثلاثين قتيلا وعشرات من الجرحى ، ثم تتابعت حلقاتها الاخرى ، وكان منها ردع مطالب مزارعي التبغ في الجنوب ومطالب عمال غندور في الشياح بالرصاص ، ثم اخذت تتصاعد ـ شكلا ومضمونا ـ منذ احداث ايار ١٩٧٣ المذهلة ، فاحداث صيدا القريبة العهد بوجه تظاهرة صغيرة لصيادي السمك البسطاء لم يكن شيء فيها يستدعي ذلك الاستنفار الدموي الذي أودى بحياة مناضل وطني وحياة الكثير من المواطنين المدنيين وغير المدنيين .. ثم جاءت الحلقة الجديدة البادئة بيوم « عين الرمانة » لتصعد بالقمع المسلح الى مستوى الميليشيات الخاصة التابعة مباشرة لبعض قوى التخلف تلك نفسها ..

نقول ان هذه الاحداث كلها ، مترابطة ، تجيب عن السؤال السابق : كيف اختارت هذه القوى المتخلفة شكل محاولتها قطع الطريق على منطق الدمقراطية ؟ .. هذه الاحداث تجيب بان قوى التخلف تلك لم تجد سبيلا الى « قلع » جذور الدمقراطية في لبنان غير سبيل المغامرة .. وكان الشكل المفضل عندها للمغامرة ، حتى الاحداث الاخيرة ، هو اسلوب القمع الدموي المدعوم من المؤسسات الدمقراطية الشكلية التقليدية .. وقد اثبتت تجربة هذا الاسلوب ، رغم كل تصعيداته المشهودة ، انه اعجز من ان يصرع الدمقراطية في لبنان ، وان صرع مئات المواطنين في حومة الدفاع عنها .. من هنا رأينا اتجاه هذه القوى يميل الى شكل جديد للمغامرة ، اي الى اطلاق اسلوب القمع الدموي حتى من قيود المؤسسات الدمقراطية التقليدية وتشريعاتها غير الدمقراطية .. أي الى الشكل الذي كانت تطلق عليه ، حتى اسابيع قليلة ، اسم « الحكم القوي » تضليلا عن هويته الصريحة ، ثم اضطرت الى كشف القناع عن هويته هذه ـ اخيرا ـ فظهر انه « الحكم العسكري » بلحمه ودمه .. غير انه ، هو ايضا ، ووجه فورا ـ لساعته الاولى ـ بالحقيقة الشعبية الصريحة ، فاكتشف ـ هو ايضا ـ انه اعجز من ان يرهب الدمقراطية ، لانها في لبنان هي الاقوى .. وانما هي الاقوى لانها هي الارسخ جذورا في تربة لبنان اولا ، ولانها ـ ثانيا ـ لم تتلق وجودها ونموها وتطورها في لبنان منة ولا سماحا من احد ، وانما هي وجدت ونمت وتطورت بفضل كفاح شعب لبنان جيلا تلو جيل . ثم هي الاقوى ـ ثالثا ـ لان منطقها المتطور في لبنان هو منطق العصر ، وحضارة العصر ، اي منطق التطور والتقدم ، لا منطق الرجعة والتخلف ..

المغامرة الرجعية تستنجد بالطائفية !

● ذلك هو جوهر القضية .. اما الاحداث الدموية ، ما سبق منها وما استجد وما ربما سيلحق ، فانما هي ظاهرات لهذا الجوهر ، ليس غير ..

لكن ، بقي امر ذو خطر بالغ ، ولا ينكشف عن هذا الامر .. نعني ما يتخذه الصراع الاجتماعي في لبنان من اشكال معينة ، وفي رأسها : اولا ، الشكل الطائفي . وثانيا الشكل المسمى « بالازمة اللبنانية ـ الفلسطينية » . كل ذلك من شأنه اخفاء الجوهر الاجتماعي لهذا الصراع .

اذا نحن استقرأنا الاحداث الدموية كلها ، حدثا حدثا ، واستقرأنا منطلقات التحرك الشعبي الذي قمع بالرصاص في هذه الاحداث ، واحدا واحدا ، فهل نجد منطلقا طائفيا واحدا بين هذه المنطلقات ؟ ..

هل كان تحرك ٢٣ ـ ٢٤ نيسان ١٩٦٩ بمنطلق طائفي ؟ .. وهل كونه دفاعا عن المقاومة الفلسطينية يعني انه طائفي ، اي هل الثورة الفلسطينية ثورة طائفية ليكون الدفاع عنها طائفيا ؟ .. وهل اللبنانيون الذين خرجوا بذلك التحرك كانوا ذوي انتماء طائفي واحد ، ام كانوا ـ في الواقع حقا ـ من مختلف طوائف لبنان الدينية ؟ ..

هل كانت مطالب مزارعي التبغ في الجنوب ومطالب عمال غندور في الشياح ، مطالب طائفية ، وفي هؤلاء واولئك عمال ومزارعون من كل طائفة ومنطقة ؟ ..

هل تظاهر صيادو السمك في صيدا لمطالب طائفية ، وهل كان معروف سعد يناضل لمطلب طائفي او قضية طائفية حين استهدفته تلك الرصاصة القاصدة القاتلة وهو يتقدم تظاهرة الصيادين الكادحين؟..

والمجموعة البشرية التي حصدها الرصاص جملة في مجزرة « عين الرمانة » ، وهي عائدة من احتفال وطني .. هل كان حضورها ذلك الاحتفال يتحمل وزرا طائفيا ، او ينساق في مساق طائفي ما ، كي يتاح لزاعم ان يزعم انها قتلت قتلا طائفيا ؟ ..

هذه الاسئلة كلها وامثالها ليست تحتاج الى اجابة ، لانها هي الاجابة نفسها .. فنحن لا نستبين وراء حادث واحد من حوادث القمع الدموي قصدا طائفيا ولا سببا طائفيا يدعو الى هذا القصد .. فليس وراءها الا غير الموقف الاجتماعي والسياسي متقنعا بالطائفية ..

بلى ، قد يكون هناك ما يصلح « مادة » لقناع من الطائفية .. هناك ذلك الواقع التاريخي المعروف الذي يمكن ان نسميه بتسميته الحقيقية ، هو تفاوت التطور بين هذه المنطقة وتلك من المناطق اللبنانية .. انه التفاوت الذي يرجع الى اسباب تاريخية موضوعية ، وهو الذي اتفق ـ تاريخيا وموضوعيا كذلك ـ ان حكم على مناطق معينة ، كثرة سكانها من طائفة معينة ، ان تكون اكثر واوسع تطورا من مناطق اخرى ، كثرة سكانها من طائفة معينة غيرها .. فهل هذا الواقع التاريخي الموضوعي يؤدي الى ان نرى في كل سعي وكفاح للفئات الشعبية في المناطق المحرومة التطور كي تزيح عن نفسها بؤس الحرمان ، انهما سعي وكفاح مسوقان بدافع طائفي لاهداف طائفية ؟ ..

مثل هذه الذريعة يحمل في ذاته وببداهة منطقه ، مضمونا اجتماعيا ليس الشكل الطائفي الذي يخلع عليه سوى قناع لستر هذا المضمون .. ذلك ان التطور التاريخي المتقدم في بعض المناطق دون بعض ، انها تحظى وتنعم بمغانمة فئة واحدة معينة دون الفئات الكادحة في هذه المناطق نفسها .

وهذه الفئة حين تستخدم هذا الواقع التاريخي بشكله الطائفي لاخفاء الجوهر الحقيقي وراء افتعال الاحداث الدموية انما تفعل ذلك حفاظا على مغانمها ، وحرصا منها على ان لا تسري اصوات المحرومين والكادحين في المناطق المتخلفة تاريخيا ، الى وعي جماهير المحرومين والكادحين في سائر المناطق اللبنانية ، ولا سيما المناطق التي تنعم فيها هذه الفئة بامتيازات ذلك التطور التاريخي ، مستأثرة بالمغانم وبمواقع القيادة السياسية والفكرية والايديولوجية .

ذلك لا يعني ان الشكل الطائفي للصراع الاجتماعي اللبناني يقتصر على جهة طائفية واحدة في لبنان . فقد اثبتت الاحداث الدموية ان القوى المنتمية الى اهل النظام اجتماعيا وسياسيا ضالعة كلها في استخدام الشكل الطائفي ، مهما كانت انتماءاتها الدينية . فكم مرة ، خلال هذه الاحداث ، حاول بعض وجوه هذه القوى ذاتها ، في بعض احياء المنطقة الغربية من العاصمة وضواحيها ان يحرفوا المعركة الدائرة عن جوهر قضيتها ، اذ اقاموا بعض المتاريس ، ليشيعوا شائعة القتل والخطف والتعذيب على اساس « الهوية » الطائفية المقابلة ، وليثيروا بذلك ثائرة الاقتتال الطائفي ، فيطمسوا طابع المعركة وجوهرها ، اي ليغيب عن وعي المواطنين ، في هذه الجهة وتلك ، ان المعركة انما تدور بين طرفين : طرف بدأ المعركة عدوانا على الدمقراطية وعلى مسيرة التطور والتقدم في لبنان .. وطرف اخر اضطره هذا العدوان الى خوض المعركة دفاعا عن الدمقراطية وعن مسيرة التطور والتقدم .. ولكن هذا الطرف الاخر احبط ، اكثر من مرة ، تلك المحاولات ، ومزق القناع عن تلك الوجوه الاخرى في هذا الجانب ، كما يمزق كل الاقنعة عن الوجوه الاخرى في الجانب الاخر ، وهي جميعا ـ في واقع الامر ـ تؤلف جانبا واحدا ، هو جانب الحاقدين على الدمقراطية في لبنان ، خشية ان تخرجهم الدمقراطية من موقع العزلة عن رياح التطور والتقدم . .

واجهة مزيفة اخرى !

● اما الشكل الثاني للصراع فهو ما يدعونه بحرب « الغرباء » أي الثائرين الفلسطينيين بالتحديد ، فهذا ، ايضا مثل ذلك ، تفضحه طبيعة الاحداث نفسها ، أي ما ينكشف كل مرة من ان الطرفين الفعليين في حركة هذه الاحداث كلها ، ليس هما : طرفا لبنانيا واخر فلسطينيا ، بل هما دائما طرفان لبنانيان : احدهما ، القوى الانعزالية الاكثر تخلفا بين قوى النظام اللبناني ، والثاني ، قوى الحركة الوطنية والدمقراطية والتقدمية في لبنان .. ان التناقض الرئيس في هذا المجال بين الطرفين يقوم على الاساس التالي :

ـ القوى الانعزالية تلك ، ترى ـ بحق ـ عمق الترابط بين الحركة الوطنية والدمقراطية والتقدمية اللبنانية وبين الحركة الثورية الفلسطينية ، وهو ـ بالفعل ، ترابط عضوي عميق يستمد حقيقته من اعتبارات قومية وتاريخية ووطنية تحررية ، وهذه الاعتبارات نفسها من شأنها ان تكون ملزمة لبنان ـ الدولة ، ولبنان ـ الشعب معا بالوقوف الى جانب الشعب العربي الفلسطيني في المعركة التحررية التي يقف الى جانبه فيها اليوم معظم الرأي العام العالمي والدولي، وقد تتوج الموقف الدولي بما التزمته اخيرا ارفع مؤسسة دولية في عالمنا الحاضر (الامم المتحدة) .. غير ان تلك القوى الانعزالية ـ اذ هي تنطلق من موقف معاد اصلا لقضايا التحرر الوطني العربية والعالمية ، ومن موقف اجتماعي ، داخل الصراع الاجتماعي اللبناني، يعادي قضية التطور والتقدم ـ اذ هي تنطلق من ذلك ، ترى في الترابط العضوي العميق بين الحركة الوطنية والدمقراطية والتقدمية اللبنانية ، وبين حركة الثورة الفلسطينية ، خطرا على موقعها في جبهة الصراع الاجتماعي اللبناني .. هي ترى خطر الوجود الثوري الفلسطيني بلبنان من خلال الحركة الوطنية والدمقراطية والتقدمية اللبنانية ، ثم هي ترى خطر هذه الحركة من خلال الوجود الثوري الفلسطيني بلبنان .. فالازمة الحقيقية اذن ليست ازمة لبنانية ـ فلسطينية ، وانما هي ازمة لبنانية ـ لبنانية . وقد اشرنا في كلام سابق من هذه الوثيقة الى عجز النظام اللبناني عن حماية الوطن من العدوان الصهيوني على حدوده وسكان هذه الحدود وعلى السيادة الوطنية في البر والبحر والجو .. وقد دأبت تلك القوى الانعزالية في تبرير هذا العجز بتحميل الوجود الثوري الفلسطيني اوزار ذلك العدوان ، في حين ترتفع دائما ايدي جماهير الشعب اللبناني وقواها الوطنية والتقدمية والدمقراطية بادانة هذا العجز وكونه استهانة بالسيادة الوطنية لا يمكن تبريرها بتوجيه تهمة خرق السيادة الوطنية الى غير مصدرها الحقيقي .

ان توجيه أحداث القمع الدموي نحو الطائفية حينا وحينا نحو « الازمة اللبنانية ـ الفلسطينية » ، وتصعيد هذه الاحداث الى مستوى الميليشيات العسكرية الاهلية،او الى مستوى « الحكم العسكري» هو توجيه يفضح عوامله الحقيقية ليضع الوجوه كلها ، امام اعين اللبنانيين ، في مواجهة صريحة مع جوهر القضيه .

ان جوهر القضية وراء كل الاحداث القمعية ، هو القضية الوطنية ـ الاجتماعية التي تشكل خلفية الازمة الدمقراطية التي هي الان ذروة ازمات القوى المتخلفة بين قوى النظام القائم في لبنان.

في جبهة الدفاع عن الدمقراطية

● اننا نحن المثقفين اللبنانيين ، من وطنيين ودمقراطيين وتقدميين ، لا يمكن ان يكون موقفنا الا في جبهة الدفاع عن الدمقراطية ، ولا يمكن الا أن يكون رفضا مطلقا لكل اساليب القمع دمويا وغير دموي ، رفضا مطلقا لكل اشكال الحكم الديكتاتوري ، عسكريا ام مدنيا . ان مصير الفكر والثقافة في بلادنا متعلق بمصير الدمقراطية ، اي بالحفاظ على مكتسبات كفاحنا المنصهر في كفاح شعبنا لترسيخ جذورها ، وبالمزيد من هذا الكفاح في سبيل تطويرها بروح عصرنا الحضاري ، لتصبح دمقراطية اجتماعية وسياسية وثقافية وتعليمية شاملة .

وان المثقفين اللبنانيين يعتبرون ان الحياة اللبنانية المرتجاة تنهض ، مستقبلا ، على مصير المعركة العربية المشتركة ، وان النضال الوطني والاجتماعي في هذا الاتجاه هو ضمانة الدمقراطية وطريق تحقيق التقدم والرفاهية .

كما انهم يعتبرون ان الحلم الانعزالي في لبنان قد سقط نهائيا ومعه سقطت اوهام العلاقات الخاصة بدول الغرب الاستعمارية . ومن هنا يرى المثقفون اللبنانيون عمق الصلات بين الفكر الرجعي والثقافة الانعزالية وبين مؤسسات الثقافة الاجنبية المعادية لثقافتنا الوطنية وتطلعنا التقدمي ، لذلك فهم يعتبرون ان للمعركة ، على الصعيد الثقافي ، دورا خطيرا ليس على الصعيد اللبناني فحسب بل على الصعيد العربي عامة ، الامر الذي يحمل الحركة الثقافية اللبنانية مسؤولية خاصة في فضح الفكر الرجعي والقضاء عليه .

في سبيل حل دمقراطي للازمة الراهنة

● تأسيسنا على هذا التحليل للواقع اللبناني الراهن ، على مختلف اصعدته وبعلاقته العضوية بالواقع العربي في المرحلة التاريخية الجارية حيث تلعب الامبريالية الاميركية دورا خطيرا بواسطة الرجعية العربية وقوى الانهزام لمصلحة دولة الاغتصاب الصهيوني ومصلحة هذه القوى بالذات .

وفي ضوء الحقائق التي تضمنتها هذه الوثيقة ترى الهيئات والمجالس والاندية الثقافية المجتمعة بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين في النادي الثقافي العربي بتاريخ ١٩ ـ ٦ ـ ١٩٧٥ ، ان تحقيق الاهداف الاتية هو السبيل الافضل ، مرحليا ، لتحقيق

مطالب الجماهير اللبنانية بمن فيهم من جماهير المثقفين :

اولا ـ تحقيق الدمقراطية في مختلف وجوهها وعلى نوع اصعدتها ولا سيما في المؤسسات التمثيلية وعلى صعيد حرية الراي والتعبير .

ثانيا ـ العمل على اقرار سياسة دفاع وطني على ان تهيأ لها الاداة المؤهلة نوعا وكما وترصد لحماية الارض والانسان والدفاع عن السيادة وتنفيذا للالتزام العربي بالقضية الفلسطينية .

ثالثا ـ معالجة الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي معالجة تتجاوب مع المطالب الشعبية التاريخية في مختلف حقول الحياة الاجتماعية .

رابعا ـ النضال من اجل علمنة الدولة وازالة كل ما له علاقة بالاستغلال الطائفي بدءا من اعادة النظر ببرنامج التعليم في مختلف مراحله وفي قطاعيه العام والخاص وانتهاء بالقضاء على اسباب الامتيازات الطائفية .

خامسا ـ الالتزام المسؤول بمعركة المصير العربي ، ولا سيما على الساحة الفلسطينية ، تأسيسا على اقتناع راسخ بان لبنان مستهدف باطماع العدوانية الصهيونية الامبريالية ، وقد ناله منها الكثير من الضحايا والخسائر ، فهو ، من هنا ، محكوم ، وطنيا وقوميا ، بالتلاحم مع جميع القوى العربية ،وفي طليعتها الثورة الفلسطينية ، المحتشدة في وجه هذه العدوانية ووجه حاضنتها الامبريالية الاميركية .

سادسا ـ دعوة القوى الوطنية والدمقراطية والتقدمية لوضع صيغة متقدمة للعمل الوطني والاجتماعي والثقافي بما يكفل تحقيق المطالب الشعبية وطموحات القوى الحية في المجتمع اللبناني .

الهيئات الممثلة والموقعة على الوثيقة

اتحاد الكتاب اللبنانيين ـ النادي الثقافي العربي ـ المجلس الثقافي للبنان الشمالي ـ مجلس الشوف الثقافي الاجتماعي ـ جمعية متخرجي جامعة بيروت العربية ـ جمعية متخرجي المقاصد ، بيروت ـ جمعية متخرجي المقاصد ، صيدا ـ الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية ـ اتحاد طلاب جامعة بيروت العربية ـ جمعية المقاصد ، صيدا ـ ندوة الدراسات الانمائية ـ جمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت ـ دار الادب والفن ـ المركز اللبناني للمسرح ـ النادي السينمائي العربي ـ النادي العربي ، طرابلس ـ النادي العربي ، بيروت ـ اتحاد الشباب الدمقراطي ـ نادي الشقيف، النبطية ـ اتحاد اندية الجنوب ـ الحقوقيون الدمقراطيون ـ التجمع الوطني للمحامين اللبنانيين ـ لجنة الدفاع عن الحريات ـ لجنة تنمية التراث الانطاكي الادبي ـ منتدى فضائي مرجعيون ـ حاصبيا ـ نادي الخيام الثقافي الاجتماعي ـ نادي بنت جبيل الثقافي ـ الرابطة الاجتماعية لشباب عين الريسة ـ جمعية الفسافين الثقافية ـ نادي كفور العربي الاجتماعي ، فضاء البترون .

ع ع س

رسالة دمشق يكتبها : سعيد حورانية

الايديولوجيا والادب في سورية

قال محي الدين صبحي مرة ـ في احدى شطحاته الخفيفة الظل ـ ان احدى الصحف اللبنانية ، واظن انه سمى « المحرر » ، عرضت عليه ان يكتب (عمودا واحدا) يتناول فيه بالنقد كتاب «الايديولوجيا والادب في سورية » لمؤلفيه بوعلي ياسين ونبيل سليمان مقابل مبلغ مئتي او ثلاثمئة ليرة (لبنانية) ولكنه رفض .. وعلق قائلا في حقد : دعه يمت في ارضه فلا يسمع احد عنه خبرا فلا اريد له ان يشتهر بقلمي ! .

ولسنا الان بصدد تحليل قول محي الدين الديكي (نسبة الى الديك الذي ظن انه بصياحه يطلع الشمس) ولا بصدد الاشارة الى التضخم الكاريكاتوري للانا عنده ،وانما نريد القول ان الكتاب ،رغم حرم محي الدين وامثاله ، اثار ضجة لا تزال اثارها تدوي في سوريا بين ردود غاضبة واخرى هادئة ، ولكن الكل مجمعون على انه كتاب نقدي هام ، وان صدوره في هذه الفترة بالذات اثار ذعرا حقيقيا عند النقاد الذين سمحت لهم الظروف السياسية وغير السياسية ان يتصدروا صفحات النقد طوال سنوات ، مميعين المفاهيم ، مشيعين امراض الذاتية والشللية والاستعداء والاعتباطية والحقد المسبق على كل ما له صلة بالاشتراكية في عالم النقد ، محاولين ان يشوهوا جيلا باكمله وان يبعدوه بشعارات ارهابية عن اي تصور تاريخي وفهم طبقي للمجتمع العربي .

ولكن ما هو هذا الكتاب الذي اثار البحيرة الراكدة ؟

مؤلفا الكتاب بو علي ياسين (اسم مستعار على الاغلب) له دراسة اقتصادية عن القطن في سوريا (وسوف يغمز احد الادباء من قناته في استعلاء لارتكابه هذه الجريمة) وكتاب عن المحرمات الثلاث الجنس والدين والصراع الطبقي (عنوان غير دقيق) . اما نبيل سليمان المؤلف الثاني فاسم معروف في الوسط الادبي برواياته الثلاث وهي : « ينداح الطوفان » ١٩٧٠ . و « السجن » ١٩٧٠ و « ثلج الصيف » ١٩٧٣ وبنقطيعه النقدية لبعض الاثار الادبية في مجلة «جيش الشعب » وجريدة « الثورة » السوريتين .

« اذا كانت الحركة الشعبية والوطنية قد تعثرت ، واذا كان المفكرون بغالبيتهم انتهازيين او غير واعيين ، والساسة تجريبيين او مضللين .. فهل نرى الادباء في مستوى افضل ؟ هل كان هؤلاء اقل تلاعبا بوعي الجماهير من سواهم ؟ » .

من هذه الجملة التي تتصف بعموميتها يضع الكاتبان نتاج عشرين اديبا واديبة سوريين تحت المجهر محددين اياه بفترة زمنية معينة وهي الفترة التي تبدأ من هزيمة ٥ حزيران وتنتهي بحرب تشرين ، معلنين انها دراسة تنطلق من « مواقع الاشتراكية العلمية » وانهما غير حافلين « بارضاء الكتاب والنقاد التقليديين او الرجعيين الجدد » وانه « قد طفح الكيل ولم يعد يحق لنا السكوت على تلاعبات المثقفين » ويتناول الكتاب الذي يقع في ٣٩٠ صفحة من القطع الكبير بعض نتاج الادباء الاتية اسماؤهم : عبدالسلام العجيلي . الفةالادلبي. غادة السمان . جورج سالم . عبدالله عبد . كوليت سهيل . مصطفى الحلاج . هاني الراهب . وليد اخلاصي . حيدر حيدر . صدقي اسماعيل . حسيب كيالي . زكريا تامر . علي الجندي . فارس زرزور . سعدالله ونوس . ممدوح عدوان . علي كنعان . محمد الماغوط . حنامينه.

ونحب الا نسيء الظن بثقة الكاتبين بان عملهما « عمل نادر من نوعه » ونردها الى تحمس الشباب لا اكثر ، فمحاولة البحث عن منهج في النقد الادبي واعتماد المنهج الماركسي قديمة قدم الحركة الماركسية في الوطن العربي . ونحب ان نذكرهما بكتابات عمرفاخوري وسلامة موسى وانجازات رابطة الكتاب السوريين ثم رابطة الكتاب العرب في هذا المجال الى جانب قسم كبير من النقد العراقي ، واخيرا وليس آخرا المنهج النقدي الواضح لحسين مروة ومحمود امين العالم وعبدالعظيم انيس . ومن الشباب يمكن ان ننوه بسامي خشبة وفاروق عبدالقادر وصبري حافظ ومدرسة النقد في الطليعة المصرية .. الخ .

ولكن « الايديولوجيا والادب في سورية » يبقى مع ذلك « عملا نادرا من نوعه » في سورية ، ذلك لان النقد المتخلف المزاجي اللا مسؤول الذي طغى على الحياة الادبية في سورية .. وغياب النقد المنهجي فنيا وايديولوجيا جعلا الحاجة الى مثل هذا الكتاب ، او الى ما كان ينوي هذا الكتاب تحقيقه ، ضرورة ملحة .

حتى الذين اثار الكتاب غضبهم العاصف سلموا جميعا بان محاولة منهجة النقد فكرة سليمة ، وان الكاتبين لا تنقصهما النية الطيبة ، ما عدا هاني الراهب الذي ادان نزاهتهما كما سنرى ،وانهما ان اخطأ في فهم تعقيدات البنى الفوقية في الماركسية ـ والادب والفن

اكثرهـا بعدا عن الميكانيكية ، واشدهـا تشابكا وصعوبة وتعقيدا – فان منطلقاتهـا – بمجملها – لا تنقصهـا العلمية . وانهمـا كـانا جادين تماما في الدراسـة التي قدماهـا وان كانا قد تعسفا في التطبيـق بحكم الفهم الآلي مرة،وبحكم الفصل الطبقي العنيف مرة اخرى (يسميه هاني الراهب المسطرية) وبحكم الاستنتاجات الميكانيكية المعممة والمبسطة التي ان صحت على الاقتصاد فانهـا لا تصح ، بنفس القوة ، على الفكر والادب مرة ثالثـة .

ولكن هذا كلام ظالم اذا عممناه على الكتاب كله ، فدراستهما عن مصطفى الحلاج وفارس زرزور وغادة السمان مثال باهر على التحام الفكر والتطبيق . ويقول علي الجندي ان الكاتبيـن قد عرفاه على نواح كـان يجهلها في شعره ، ولا تعدم ايـة دراسـة في الكتاب عن كشف حقيقـي وجديد لبعض جوانب الشخصية المدروسة . ولذلك تبدو غير مفهومـة (او مفهومـة جدا) بعض هذه الحملات التي تعرض لهـا الكتاب والتي رفضته ككل جملة وتفصيلا .

وقد احيط الكتاب بمؤامرة صمت من قبل النقاد (الذين يعنيهـم الامـر) واكتفـوا بهجائه شفهيـا في المقاهي والخمارات ، ولجـأوا الى حمـلات (دفاعية) على الادب السيس كمـا كتب محمـد عمـران المشرف على القضايا الثقافيـة في جريدة « الثورة » . فقـد لاحظ بحق – بعد ان عدد تحفظاته على الكتاب – ان الكتاب « يطرح منهجـا علميـا واضحا للنقد الادبي عندنا ، وهـذا المنهـج يجـيء في وقت تسيب النقد ، واختلال التوازن الادبي ، وخضوع عملية تقويم الادب للامزجـة الشخصية ، والتحليلات الفرويدية ، والمناهج البورجوازيـة الاوروبيـة . لهـذا السبب بالذات نقول ان الكتاب هام .

« الصمت الذي قابله به بعض النقاد عندنا دليل آخـر علىاهمية الكتـاب .وهو صمت مقصود ، يهدف ، فيما يهدف ، الى ابعـاد شبح الوعي الايديولوجي عن النتاج الادبي الذي يروجون له .

« لقد كثرت في الآونة الاخيرة – وبالضبط بعد صدور الكتـاب المذكور – الحملات الادبيـة على تسييس الادب ، وتمطى اكثر مـن منتج او ناقـد ليؤكـد وجهـة نظره في ان لا علاقه بيـن الادب والسياسة ، تلك هي عمليـة الدفاع الخاسرة عن التراكمـات الادبيـة الكثيرة التـي افرزها الفكر البورجوازي العربي عبر ربع القرن الاخير » .

***

ومن افضل من فهم الكتاب بصورة اقرب الى الموضوعية محمـد كامل الخطيب (قصاص شاب موهوب) فعقد مقارنة بين « الايديولوجيا والادب في سوريا » وبيـن « في الثقافة المصرية » لمحمود امين العالم وعبدالعظيم انيس الذي صدر في اواسط الخمسينات وكـان على حد قول الكاتب « تصفيـة حساب تقوم بهـا طليعـة القوى التقدمية ممثلة فكـر الطبقـة العاملـة مع الثقافـة المصرية السائدة آنذاك (١) » .

وبعد ان يحلل محمد كامل الخطيب كتاب « في الثقافة المصرية » آخذا عليه انه وقع اسير المفهومـات الادبية للستالينية السائدة آنذاك رغم الاهمية القصوى لطرح المؤلفين الذي ارسى « الاسـاس النقـدي الاول لمذهب الواقعية الاشتراكية في الوطن العربي » يخلص الـى ان « الايديولوجيـا والادب في سورية » الذي اتى بعد عشريـن عاما من صدور « في الثقافة المصرية » انطلق من منطلقات الكتاب الاخير ذاتهـا وربمـا ليصل لنتائج مشابهـة « فهـو – اولا – يؤسس نقديـا للواقعية الاشتراكية في سورية ، ويصفي باسم فكر الطبقة العاملة الحساب مع الاب السوري السائد الان ، وهو – ثانيا – يقع في خطأ « فـي الثقافة المصرية » ذاتـه : النظـرة الميكانيكية للادب في علاقته معالواقع، كمـا أن شدة احتفاء الكتاب بالموقف الايديولوجي ، وهذا جيد ومشروع شرط الا يتجاوز حده :اي الجدل ، فينقلب الى ضده : اي الميكانيكية، والاقتصادية تحديدا – ان هذا الموقف الايديولوجي مفصولا عن المقدرة الفنية ، والتي بدونهـا لا يكـون ادب ، اوقع الكاتبين في تقويمـات واراء قد لا يوافقهمـا عليهـا قراء ينطلقـون من منطلقاتهما الايديولوجية نفسهـا » .

(١) الثورة السورية العدد ٣٧٥٢ .

ويرصد الكاتب بعض الطروح الخاطئه التي افضت الى استنتاجات ميكانيكيه ، ومن ذلك قول الكاتبين : « تقاسمت البرجوازيه الصغيرة – وهي تشكل اكثرية الشعب السوري – (ولذلك كان اكثر ادبائنا مـن هذه الطبقـة) اتجاهات سياسيه عديدة .. الخ » ص ٧٦ ويعلق علـى ثلاث نقاط :

١ – ليس هناك شعب في العالم يؤلف البرجوازيه الصغيـرة اكثريتـه .

٢ – كون اكثرية ادبائنا من الطبقة البورجوازية الصغيرة عائـد للسيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية لهذه الطبقـة لا لكونهـا تشكل اكثريـة الشعب .

٣ – اكثر الذين هاجروا الى المدينة من ريفنا – الذي لا يـزال يشكل القاعدة الواسعـة للانتاج عندنا – لم يذهبوا الى المصانع ليكونوا البروليتاريا ولم يضخموا عدد البورجوازيـة الصغيرة ليجعلوهـا اكثرية وانمـا هم أشبه بمـا تسميه الماركسية « البروليتاريا الرثة » .

ويخلص من ذلك الى ان التحديد الطبقي الـذي اعتمـده الكاتبان لهويـة اكثر الادباء غير دقيق وينسحب ذلـك طبعـا على تطلعاتهـم الفكريـة .

ويتطرق محمد كامل الخطيب الى مسألة رئيسية وهي مسألة درجة الابداع الفني واهميتها – وقد طرق هاني الراهب الى هذه المسألة ايضا في رده – فالتقدميـة في النوايا وفي الموقف الايديولوجي المسبق اذا لم تصاحبه موهبة اصيلة ، لا ينتج ادبا يمتـل شواهد المجتمـع الاشتراكـي .

ويضرب ببلزاك الرجعي فـي السياسة ، والذي كان اكثر اهمية وفائدة في عكس الوضع الطبقي في المجتمع الفرنسي من غيره الذيـن حملوا نوايا ايديولوجيـة تقدميـة في عصره .

ويختم محمد كامل الخطيب مقالته بهذا المقطع الذي يلخص رأيـه في الكتاب : « ان كتاب « في الثقافة المصرية » اتى بعد زمن قليل من الفترة التي انتقل فيهـا محمودامين العالم من الوجودية ؟! الىالماركسية، ولذلك فـان حماسته للموقع والفكـر الجديد الذي انتقل اليه – وربما بتأثير رد الفعل كذلك – اوقعه في الميكانيكية ، مع اخذ الفهم السياسي السائد انذاك بالاعتبارات التي تحدثنا عنهـا آنفا .

اما عندما « استقر » محمود امين العالم في الماركسية فقد قـدم كتابه الممتاز عـن « المعمار الفني في أدب نجيب محفوظ » . وهكـذا يأتي كتاب « الايديولوجيا والادب في سورية » لابي علي ياسيـن ونبيل سليمـان ، بعد انتقالهمـا من فكرهمـا السابق الى مواقع وفكر الطبقة العاملـة ، وكأنه « تصفية حساب مـع وعيهمـا الايديولوجـي والادب السابق » ولا شك انهمـا ، وبعـد ان يستقرا في مواقع وفكر الطبقـة العاملة فانهما سوف يكتبان كتابا تنتفي فيه الانتقادات الموجهـة الى هـذا الكتـاب .

***

يصـدر رد هاني الراهب العصبي ، وهو احد الكتاب الذيـن ظلمهم الكتاب فعـلا ، رسم كاريكاتوري مفزع لرجل مشوه يلتهم رجله وامامه شوكـة وسكيـن (١) ، وظهـر رأسا ماذا ينتظـر الكاتبيـن مـن هاني الذي بـدا مستشـارا منذ السطر الاول ، واذا كان قد نعى على الكاتبيـن بعض العبارات غير المستساغة راميـا اياهمـا بفساد الذوق ، فانه كـال لهمـا الصاع صاعين واغنى لغتنا بأوصاف ستدخل فن النقد مـن بابه العريض .

ففرض المؤلفين هو « المناطحة » ومنهجهمـا « تعسفي خارجـي ونوايـا سلبيـة مبيتة ومزاج عقلي سيء » وهـو « ان صحت التسمية، المقاضاة وليس فقط المحاكمة » والكتاب « مكارثيـة يسارية وهيواحدة من الآفات التي يبتلى بهـا اليسار بين فترة واخرى عندمـا ينزلـق المؤمنون الارثوذكسيون بنظريـة ما الـى مواقع رجعية » وهما « قامـا بالقاء الادباء على سرير بروكست » وهما مبتليان « بتحجر المنطلقات

(١) بعنوان : « عندما تخلو الايديولوجيا والادب من الايديولوجيا والادب » الثورة العدد ٣٧٦٥ .

طوباوية حذرية» ومصابان « بالولدنة اليسارية» و «العمى العقائدي الذي تغلغل في ثلاثمئة وتسعين صفحة » و« بالغفلة العجيبة وغير العجيبة » وهما « قد شطبا على مجمل الحياة العربية فكرا وسياسة ونضالا » ومنطلقهما « قبلي من مسلمات مسطرية » ،وقد خرجا « في حملة صليبية » « ليؤكدا ـ وليس يكتشفا ـ خيانة الادباء وانتهازيتهم وتشوشهم . انها محكمة تفتيش ، والمسلمة الرئيسية فيها هي : اما ان تكون مجرما ، واما ان تكون مجرما . ليس ثمة خيار ثالث » .

واخيرا « من هما في عالم السياسة او الادب او النضال كي يلبسا بذلات الشرطة ويحاسبا الناس في ضمائرهم وتجاربهم ؟» و« مكارثي كان شيخا في الكونغرس الامريكي مخولا باسم سلطة معينة في ان يفعل ما فعل . اي مرجع طبقي منح السيدين بو علي ـ سليمان حرية التكلم بهذه الفجاجة والقبضائية ؟» .

اتجه هاني الراهب في رده كصاروخ متعدد الرؤوس ، تفحص ماركسية المؤلفين مطولا ليخلص الى انهما لم يفهما من الماركسية الا نصوصا سكونية جامدة واتى بشواهد قريبة الشبه بما اورده محمد كامل الخطيب . ثم اعطى المؤلفين درسا في فهم الماركسية بصورة خلاقة ومتطورة ! فماركس نفسه قال عن نفسه بانه ليس ماركسيا (تعبير ماركسي وجد بعد موت ماركس) واعتبر البيان الشيوعي الفلاحين حشد عطالة يعيش من البورجوازيه ويلصق بها (نقبنا طويلا عن العبارة المذكورة او بمعناها فلم نلق ذلك في أية طبعة معترف عليها طبعا ، ذلك ان هذه المقولة ضد ابسط مبادىء الاقتصاد الماركسي) ، واكدت العقود الثلاثة الاخيرة كذلك ان الشعور القومي في العالم الثالث يمكن ان يكون طاقة ثورية وليس دائما رجعيا (خلط هاني بين الشعور القومي وبين الفكر القومي ، لا بأس ، فالماركسية مشاعية بدائية لاجتهاد من يشاء ، ثم حتى هذا الاخير لا يمكن ان يكون دائما رجعيا حسب اقدم النصوص الماركسية ، وتلعب بعض درجاته دورا تقدميا ضد الاستعمار في بعض الظروف ،وفي درجات اخرى يصل الى الفاشية) .

بعد هذا الدرس البليغ في الفهم التطوري للماركسية يدافع هاني عن الستة عشر اديبا (المدانين) في الكتاب متجاوزا ، بهدوء اعصاب هذه المرة ، كل الخلافات الفكريه والايديولوجية التي نفرق بينه وبين بعضهم ، مقدما تنازلات يرفض هو بالذات ، في ظروف موضوعية اخرى ، ان يقدمها لهم باباء وشمم ، فالقضية هنا تكتيك ، ولا علاقة لها بالاستراتيجية العقائدية ما دام الهدف المشترك هو سحق العدو الان . ويقف طويلا عند « فهد » حيدر حيدر ، و « شرخ في تاريخ طويل » لهاني الراهب نفسه ليقدم عنهما دفاعا حيا وعلى جانب كبير من الصحة كانت تقطعه بعض الطلقات التي اوردنا نتفا منها ،ثم ينزلق في سورة غضبه ليطعن بخنجره الاربعة المحظوظين الذين دخلوا جنة الكتاب والذين اعتبرهم المؤلفان « شواهد المجتمع الاشتراكي الجديد »وهم عبدالله عبد وسعدالله ونوس وحنا مينه وفارس زرزور.. نسي هاني كل ما يجمعه معهم من فكر ومن نضال ومن رفاقة طريق على الاقل ، فهم مدانون لان الكتاب لا يدينهم ، وها هو يلخص رأيه فيهم بهذا الايجاز المعجز : « وبين الاربعة الذين دخلوا الجنة واحد يتلمس طريقه ، وآخر احترف ادب البورصة ، وثالث ارتد الى مسيحية زورباوية ، ورابع ظل متمسكا بتلابيب طبقته ؟! ».

من سوء الحظ ، من سوء الحظ فعلا ان العدد لم يبلغ حد العشرة المبشرين بالجنة ، وهكذا خسرنا اوجز تقييم في التاريخ منذ الوصايا التوراتية العشر المشهورة !

ويرتد الراهب ليشرح اثنين هما سعد الله ونوس وحنا مينه شاملا بعفوه الآخرين ربما لانهما ليسا بقدر المقام ـ فقند اراء المؤلفين فيهما ... ومن الطرائف المأساوية في التحليل ان هاني الراهب خلع مسوحه ليلبس المسوح الذي خلعه عليهما في المقال ولعب كاحد شخصيات بيراندللو الدور ذاته ، فسعدالله يحتقر الشعب في انتاجه (توحي « الفيل يا ملك الزمان » ببعض ذلك ولكن الحكم لا ينسحب على بقية المؤلفات بحال) والزمان قد ابى على « حفلة سمر » « ماذا بقي الان من حفلة سمر ؟ فقط ذلك الروح والبيانات الشقيرية . انها لم تضف وعيا جديدا لاحد ، ولا زادت في ادراك اي عامل للوضع الطبقي والسياسي الشاذ » « اما الشنائم الموجهة للحكومات والقادة فهي بضاعة كاسدة او ركوب موجه . واما الفضح والعرية والوعي والجرأة وغيرها مما يكيله المؤلفان للمسرحي ، فقد تأكد انها ليست امورا باقية !! » .

وبعد هذا الحكم الذي يوحي بأن هاني قد استقى كل من شاهد المسرحية على طريقه معهد (غالوب) وتأكد انها لم تضف وعيا لاحد ، اسدار الى حنا مينه ليقرر انه اهدر القيم النضالية لحساب القيم المسيحية في « الثلج يأتي من النافذة » وان فكر البورجوازية الصغيرة هو الطابع الاساسي لروايته .

ويختتم هاني مقالته بهذه النصيحة المتواضعة :

« لماذا الاهتمام بكتاب كهذا ، حافل بالفظائع النقدية والعقائدية؟ قال لي محي الدين صبحي مرة : انا اكتب نقدا كلما احترا حذائي، ويبدو ان المؤلفين يؤثران المشي حافيين (لاحظ المفاضلة) ينبغي الا يغيب عن بالنا ان النقد بالنسبة لهما قضية ـ مهما كان مستوى الرؤية والتطبيق متعثرا وارهابيا وطفلانيا ، ونحن نرجو لهما ـ بصدق وثقة ـ ان يكتبا في المستقبل باعصاب اقل انتفاخا وذهن اكثر تفتحا » .

وهذا هو النقد الرهباني الذي اقترحه هاني بديلا للنقد الارهابي..

* * *

اما زكريا تامر فقد ازعجت طمأنينته هذه (الموضة القديمة)من الحكي السياسي الذي عاد الى مسرح الصحف والمجلات والكتب بعد ان غاب او غيب عنها سنوات وسنوات . فهاجم في مقال (١) جامع مانع لا يتجاوز عمودا واحدا كل من يعنى بالجانب السياسي من الادب ، وكل من يتطرق في ادبه الى اية مشكلة من مشكلات الوطن والعالم والكون ، متهما الجميع بانعدام الموهبة وبالسطحية والارهاب « اما الادباء الذين يكتبون مخلصين لبيئتهم الاخلاص الفني البعيد عن التشنج والصراخ الحماسي فهم الايتام على مائدة اللئام » .

ويستطرد اليتيم مستعرضا واقع الادب والفكر في بلادنا فيقول في فقرة رامزا كعادته « الايديولوجيا والادب في سوريا » :

« هذا الواقع المر الهزلي يرجع وجوده الى اسباب عديدة ،منها ظهور فئة تزعم انها وحدها الواعية الشريفة والتي تمتلك الفكر العلمي الموضوعي ، فتنتفض باسم الواقع ومشكلاته على الاثار الادبية الجيدة واصحابها بالتصنيف والتقييم شرسة شراسة جزار يفضل احتساء الدماء على الغودكا ، مطلقة يمنة ويسرة احكامها غير القابلة للاستئناف او التمييز ، فهذا في رأيها اديب رجعي لان كتاباته تخلو من التنديد بالاستعمار ، وذاك اديب خان الطبقة الكادحة (اتهمه المؤلفان بذلك) لانه في نتاجه تحدث عن الموسيقى والقطط والورد ، وكأن الموسيقى والقطط والورد اعضاء في المخابرات المركزية . واديب ثالث غير مرتبط بالواقع لان اشعاره لم تتطرق الى تمجيد العمل الفدائي .. الخ .»

ثم يعدد أصناف هؤلاء الادباء والنقاد ليصفي الحساب مع همومه الشخصية وليخلص الى دمغهم جميعا بانهم اصفار :

« ومن المضحك ان هذه النظرة السطحية الى الادب اذا طبقت على النتاج الادبي المزعوم لتلك الفئة ، فلن يظفر افرادها الا بثلاثة اصفار موضوعية ، اما القراء فهم بالتأكيد سينبرعون بسخاء بثمن الاكفان » .

زكريا تامر كاتب موهوب بصرف النظر عما يمثله ، ولذلك ليس من حقه ، امام نفسه على الاقل ، ان يجعل من نفسه بكتابات فيها مثل هذه الضحالة الفكرية والتي تخلفت تخلف رداحات شارع محمد علي عن الرقص الموزون منذ عشرين سنة على الاقل ..

دمشق

---

(١) « الادباء الاصفار » جريدة البعث العدد ١٣٨٦ .